الموقع الرسمي لـ:
الأستاذ الدكتور موسى إسماعيل

التعصب المذهبي

يخدم المتعصبين ولا يخدم الإسلام

بقلم
أ.د/ موسى إسماعيل

التّعصّب المذهبي

يخدمُ المتعصّبين ولا يخدم الإسلام

بقلم

أ.د/ مُوسَى إِسْمَاعِيلْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد: فإنّ أحسن من قيل في تعريف التّعصّب أنّه: «عدمُ قبول الحقّ عند ظهور دليله»، لأنّ المتعصّب ينتابه شعور داخلي بأنّه أفضل من غيره، وأرفع قدرًا منه، فيعميه الغرور، ويضلّه العناد، ويصدّه العُجب الكاذب والزّهو الباطل عن قَبول الحق.

وورد في الحديث عند أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**»، قال بعض الشّرّاح: المراد التّعصّب.

إنّ التّعصّب المذهبي: هو أن يعتقد المتمذهب نفسه أنّه على الحقّ دون غيره، وأنّه في الطّريق الصّحيح دون سواه، وأنّ الأحكام الشّرعية المنسوبة إلى مذهبه صحيحة كلّها، وغيرها ممّا جاء في المذاهب الأخرى لا ترقى إلى مستواها، ولا تبلغ مداها، والأسوء من ذلك إذا كان يعتقد أنّ غيره على الباطل والضّلال المبين.

والتّعصّب المذهبي: ليس مرتبة واحدة، بعضه أشد من بعض، وبعضه خطير، فمن كان يعتقد نفسه أنّه على الحقّ دون غيره، ولكنّه يعذر غيره، فهو أحسن حالًا من الذي يرفض الغير ولا يقبله إلّا مكرهًا، وهذا الأخير أفضل من الذي يُكَفِّر الآخر ويرميه بالمروق من الدِّين.

لما يُبْتَلَى المسلمون بالتّعصّب، تتوقّف بهم عجلة التّاريخ، لأنّهم يدخلون به الأزقة الضّيّقة الخانقة، ويتركون الطّريق الواسع الذي يسع الجميع، يضيّعون أوقاتهم في الجدال الذي لا ينفع أحدًا، ولا يخدم إلّا عدوًّا، ويشتغلون بالهامش على حساب الأصل، وتلهيهم الفروع عن القضايا الأساسية، ويكون الاجترار هو المقصود من دراسة الفقه لا التّجديد لتحقيق القفزة الحضاريّة، ويعيشون المسائل التي انقضى زمنها ولم نعد في حاجة إليها، ولا يعيشون واقعًا هم جزء منه.

ترى بعضهم بأجسادهم في القرن الخامس عشر الهجري أو الواحد والعشرين الميلادي، وهم في حقيقة الأمر يعيشون في قرون مضت، مع ظروف انقضت، ومشكلات انتهت، واهتمامات وتطلّعات كانت ثم تحقّقت ثم أمست صورة من الماضي، ويخوضون معارك وهمية، وصراعات فكرية قديمة، صارت جزءًا من صفحات التّاريخ التي تُروى أحداثها لأخذ الدّرس والعبرة.

التّعصّب المذهبي: يقتل المواهب، لأنّ المتعصّب يكون أُفُقُهُ ضيّقًا، فلا يرى إلّا بعين واحدة، هي عين مذهبه، أمّا لو كان متفتّحًا على غيره من المذاهب، فإن الأفق أمامه يكون واسعًا يملأ جميع الأجواء، لأنّه يرى بعيون كثيرة، فينكشف له ذلك المجهول ويصير واضحًا لديه.

والنّتيجة إذن، أنّ المتعصّب يعتقد أنّه على الحقّ دائمًا، وغيره لا يصل إلى رتبة مذهبه أبدًا، وأنّ إمامه أفضل من غيره في كلّ شيء، ويُثْبِتُ له العصمة من حيث يدري أو لا يدري، ولا يجوز في نظره الخروج من المذهب مطلقًا، ويرفض أي اجتهاد خارج مذهبه.

وهذا هو الجمود الذي يُفسد رونق الفقه، ويُكدّر صفاء التّشريع، ويمنع من الاستفادة من الخبرات العلميّة، ويقيّد حركة الفقه ويمنع تطوّره.

ولا بد من الإشارة إلى الفرق بين المتّبع للمذهب وبين المتعصّب له، فالمتّبع يأخذ بما في مذهبه من الأقوال معتقدًا صحّتها، لكنه لا ينفي عن المذاهب الأخرى صحّة ما فيها، فهو يعتقد أنّ كلّ المذاهب على حقّ، وأنّها تتكامل فيما بينها، وأن جميع الأئمّة على الهدى، وأنّهم جميعًا كما قال البوصيري رحمه الله: من رسول الله ﷺ مقتبس.

والمتّبع: لا يجد حرجًا في الأخذ بأقوال المذاهب الأخرى إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك، لأنّهم جميعًا أئمّة يُقْتَدَى بهم، أمّا المتعصّب فيتحرّج من ذلك ويأبى الخروج من رأي المذهب، ولو أفضى به الأمر إلى الضّيق والحرج الشّديد.

المتّبع: لا يطعن في العلماء ولا ينتقص أحدًا منهم، ولا يدّعي العصمة لإمامه، بخلاف المتعصّب، فهو على نقيض ذلك.

اتّباع المذاهب فرض بالكتاب والسُّنّة، واتّفاق أئمّة الأمّة، إلّا من شَذَّ عنهم، والشّاذّ لا يقاس عليه، ولا ينبغي أن يُلْتَفَتَ إليه، أمّا التّعصّب فمذموم أيضًا بالكتاب والسُّنّة واتّفاق أئمّة الأمّة.

الفقه إذا لم يكن مواكبًا للواقع، ولا يهتم بمشكلات النّاس اليومية، وقضاياهم المصيريّة المعاصرة، ولا يبحث عن الحلول للمعضلات الاقتصاديّة، والتّحوّلات السّياسية، والتّغيّرات الاجتماعية، والأمراض النّفسيّة، والاختلالات السّلوكيّة، فهو فقه ميّت، لأنّ الفقه في الأصل جاء من أجل الحياة، وهذا الفقه الجامد لا يمنح الحياة، والشّريعة جاءت لتمنح الحياة، كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: 24].

إذا أردنا الارتقاء بالفقه وخدمته، يجب علينا التّخلّص من مشكلة التّعصّب المذهبي، وأن نستفيد من كلّ الجهود العلميّة لفقهائنا في المذاهب الإسلاميّة، لأنّ المذاهب كلّها تصبّ في خدمة الإسلام، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال، أن يكون الإسلام محصورًا في مذهب واحد، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: 82]، كذا جات الآية ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾، بصيغة الجمع، ولم يقل: «يستنبطه» بصيغة المفرد، لإثبات أنّ الدّين يخدمه الجميع، ويتعاون على تبليغه الجميع، وأنّ باب الاستنباط مفتوح لكلّ المجتهدين لا يختصّ به واحد.